النسق التداولي للنص الصوفي في ليبيا
"وصايا الشيخ عبد السلام الأسمر أنموذجا"

د. أبوبكر محمد سويسي
كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية. الجامعة الأسمرية. زليتن

استلمت الورقة بتاريخ 2024/07./12، وقبلت بتاريخ 2024/07/25، ونشرت بتاريخ 2024/08/01

الكلمات المفتاحية: النص. النسق. التداولية. التصوف.

الملخص

إن اهتمام التفكير التداولي منصب على محورين: دراسة اللغة في ذاتها، ودراسة الجانب الاستعمالي لها ، وبذلك ينفرد عن بقية الدرورس اللسانية المتقدمة عليه من جهة انكبابه على اللغة أولا، ثم مراعاة الجانب الاستعمالي فيها ، مما يعد وليد "فلسفة اللغة العادية" التي دعت إلى دراسة اللغة في جانبها الاستعمالي، وقد تلقف الفكرة الجديدة كل من جون أوستين" وتلميذه وجون سيرل، وأكدا على دراسة جوانب أخرى من نحو: المتكلم، والكلام، والمقام، والتواصل والغرض، والمتلقي ؛ لذلك وجب على الباحث أن يلم بكل ما له صلة بالمتكلم حتى يصل إلى كنه الخطاب، ويصل إلى الوقوف على ما دفع المتكلم إلى تبني واختيار هذا الاستعمال اللغوي دون غيره.

Summary

The interest of pragmatic thinking is focused on two axes: the study of language itself, and the study of its usage aspect. Thus, it is unique from the rest of the linguistic courses that preceded it in that it focuses on the language first, then takes into account the usage aspect of it, which is considered the product of the “philosophy of ordinary language” that the philosopher adopted. "Wittgenstein", with his call to study language in its usage aspect, and after him both Austin and his student Searle followed him, and their emphasis on studying other aspects of the speaker's grammar, speech, pronunciation, status, communication, purpose, and recipient. Therefore, the researcher must be familiar with what is relevant to the speaker in order to reach It refers to the content of the speech, and it reaches what prompted the speaker to use this language and not any other.

أهداف البحث وأهميته/ من بين الغايات التي يتغياها البحث ما يلي:

. المشاركة في إنجاز طرف من أهداف المؤتمر وغاياته، الكامنة في تواصل الفكر والإبداع في الموروث الليبي مع المنجزات المعاصرة للتفكير اللساني والنقدي، في ميدان تحليل الخطاب.

. إنجاز لون عميق من التمثل الأمثل لجماليات النسق التداولي للوصايا في أدب الشيخ الأسمر بآليات وقراءات تداولية لنماذج منه، مما يعد طرحا جديدا لجماليات الإبداع الأدبي فيه، فهو عمل غير مسبوق -فيما أعلم-، وهنا تكمن أهمية البحث وقيمته.

. مشكلة البحث/ يبقى الوقوف على طبيعة النسق التداولي المفعل والمستخدم في البناء الوصائي للوصية الأسمرية إشكالا بحثيا بحاجة إلى البيان والإفادة، فهل كانت الأنساق التداولية في وصايا الشيخ الأسمر متمثلة ومدركة للقيمة النقدية والفاعلية الجمالية؟ وإلى أي حد اشتملت هذه الأنواع الأدبية-بتجربتها الصوفية- على أبجديات وآليات النظرية التداولية المعاصرة؟

منهج البحث/ اتبع البحث المنهج الوصفي، وذلك لوجود معرفة مسبقة ومعلومات وافية للإشكالية اللغة التداولية في النص الصوفي، سعيا منه- المنهج الوصفي- إلى تفسير بنية النص الصوفي لدى الشيخ عبد السلام الأسمر في ظل إسهامات المستويات التداولية للغة،

التمهيد /

يعد مجموع الأنساق اللغوية وغير اللغوية مرتكزا في المقاربة التداولية للمنطوقات والنصوص، فكان النسق من أهم ما يحكم الدرس التداولي باعتباره مؤشرا ورمزا يحمل دلالة اجتماعية و ثقافية تتجلى في ذاك الزمان والمكان، هذه الرمزيات تشكل سلوكا عاما وسمة لمجتمع ما، وعند أية محاولة لفك هذه الرمزيات والشفرات علينا تحديد طبيعة حركتها في الاستعمال التخاطبي، ومرجعيتها سواء كانت عقدية أو توجهات سياسية أو ظواهر اجتماعية أسهمت في تحولها إلى نسق تداولي له صلة بلغة الحياة اليومية وضروب الاتصال المعرفي لذلك المجتمع ، وذلك بما يمثله عنصر القصدية التي اهتم بها العرب بقولهم: إن لكل مقام مقالا يوافق مقتضى الخطاب ومقصدية المتكلم، فكان وجود التأويل والمجاز والتشبيه وموضوعات البلاغة أمرا محتما للدور المهم في إضمار ما نقصد خلف مكون النسق التداولي، فالتداولية تدرس وتعنى بحدود اللغة في إطار الاستعمال، غير آبهة بحدود الوضع الأصلي، وإن كان إطار الاستعمال يبنى على الوضع الأصلي، فمقاصد المتخاطبين لا يمثلها الوضع اللغوي المجرد فقط، ولا يمكن الوصول إليها إلا من خلال فهم اللغة في سياق الاستعمال المتجدد بتجدد مقاصد المتكلمين، يستند فيه المتخاطبون إلى الوضع اللغوي، ويتجاوزونه تلبية لمقاصدهم. [i]

وهنا نجد اشتراكا واضحا يدعونا إلى ملاحقة المعنى الذي جاء به الاستعمال، والذي أضمره المقصد وأوكل للدرس التداولي تأويله وفق أنساق الخطاب المتعددة والمتنوعة، فالتداولية ليست دراسة للغة بالمعنى الجامد للدراسة اللغوية، بل هي دراسة اللغة حال كونها خطابا، من هنا كان هناك ما يدفع البحث التداولي نحو الكشف عن الأنساق الخطابية المشكلة لذلك الخطاب التداولي.

فجاءت القرآآت النقدية المعاصرة للنص الأدبي محاولة الاستفادة من المبادئ الإجرائية للدرس اللساني، متأثرة بما يجري فيه من تطور وانفتاح على أفق أرحب، يتجاوز عزل النص عن ظروفه الخارجية بما في ذلك موت المؤلف، إلى مكون جديد يضع في حسابه تحليل نوايا المتكلم ومقاصده، وكل العمليات المحيطة بعملية إنتاج النص، وأيضا تلك الملابسة بأحوال التلقي.

والنص الصوفي بما يكتنز من تجارب وجدانية يتسامى بها عن المباشرة والحسية، متحررا من قيود العقل وصرامة القياس والمنطق، باعثا الانسراح في آفاق ومسارات لا تعترف بتلك القيود والحدود، مما يؤهلها للشروع في عملية الترقي اللدني ومراتب العلوم اللدنية، التي لا يخضع المريد في سبيل نيلها واكتسابها لاشتراطات التحصيل للعلوم الكسبية، والنص الذي بين أيدينا هو نتاج تكوين له أصوله ومناهجه التي قد تتعارض مع كثير من الرؤى الفكرية والفلسفية، لعل من أبرز تجلياتها الخيال وكونه مصدرا للإلهام المعرفي، فالمخيلة عامل إلهام العارف بما يلقى في روعه من مكاشفات، ولا علاقة للصوفي بما ينالهم من هذا المدد الإلهي، وقلوبهم" عاكفة على باب الحضرة الإلهية، مراقبة لما ينفتح له الباب، فقيرة خالية من كل علم... فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمر بادرت لامتثاله، وألفته على حسب ما يحد لها في الأمر[ii]؛ لهذا أعلى العارفون المتصوفة من قيمة الخيال، في خطوة اتصال وتواصل مع العالم العلوي، التي يعجز العقل عن مقاربة كنهها بحكم صرامة القيود التي يعتمدها ويركن إليها، وأبعد من حال العقل أحوال المحسوسات التي تتلاشى في دروب العوالم الغيبية والفضاآت العلوية،" إن الخيال عندهم يساعد في الكشف عن نوع مهم من المعرفة، وينير الطريق لإدراك طائفة من الحقائق المتعالية التي لا يصل إليها العقل الصارم"[iii].

بعد هذا العرض الموجز لطبيعة نصية النص الصوفي التي تبدو أنها نصية مستمدة من آفاق ومجالات تقصر عنها مدارك الخلق، الأمر الذي يقضي بلون غير يسير من الشغف في سبر أغوار نص هكذا تشكله وإنجازه، ويجعلنا- متلقين للنص الصوفي- أمام التزام علمي حول تلك الأنساق النصية التي هي مؤهلة للطرح التداولي، بما يوجب علينا الإفادة من أبعاد المعالجة التداولية أولا، ومن طبيعة تلك الأنساق وفاعليتها التداولية من ناحية أخرى، وتأتي الوصية أنموذجا لعنايتها بالوصف وبوظائف أفعال الكلام، وبالأنساق اللغوية وغيرها التي أسهمت في تحليل تلك الأنماط من الخطابات المكتنزة بالإجرآآت النصية.

والوصية في اللغة من أوصى الرجل ووصاه، أي عهد إليه، وهي مما أوصيت به، مأخوذ مما وصيت الشيء إذا وصلته، ووصّى الشيء بالشيء وصله.[iv]، وفي الاصطلاح ما تضمن توجيها أو تعليما شفويا أو مدونا، يصدر من إنسان نحو آخر، راجيا الأخذ بمقتضى مضمونه، فالوصية حصيلة فكرية نتجت عن تجربة وخبرة وممارسة لأحداث الزمان واطلاع على تجارب الآخرين، "وهي فن أدبي يكون شعرا أو نثرا يحتوي حصيلة وتجارب تصدر عن كبار في تعابير موحية، لها أثر طيب في النفوس والقلوب والعقول، ولها خصوصيات قد تكون للأبناء أو الأصدقاء أو لغيره"[v]، وللوصايا عهد يمتد إلى الآداب القديمة كالسريانية والهندية، ثم انخرطت في الأدب العربي شاغلة مواطن بعينها، يجمعها التبصر والتعقل.

وللوصايا تعلق بالأدب الصوفي الواقع ضمن تطور الفكر الصوفي، منذ نشأته في القرون الأولى، فضلا عن ابتكار معاجم ومصطلحات خاصة بهم، فتنوعت فنون الأدب الصوفي بين الحكم والرسائل ونماذج التعابير عن المعارف والعلوم اللدنية، ومن بينها الوصايا التي أتت بلغة الأجناس الصوفية، متجاوزة المعجم إلى منطوقات لها دلالاتها المحاطة بالمعاني الصوفية الجديدة، تمثل" كلاما محددا صادرا عن متكلم محدد، وموجها إلى مخاطب محدد، بلفظ محدد، وفي مقام تواصلي محدد، لتحقيق غرض تواصلي محدد"[vi].

تعد الإجرآآت النسقية في نص الوصية إجرآآت تواصلية تتشكل خطوطها في ازدواجية أنساق الحركة الكلامية الماثلة بين المتكلم والمتلقي، هذه الإجرآآت التواصلية هي" العناصر المشتركة بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة، والظروف الاجتماعية العامة بما تثيره من الافتراضات المسبقة، والقيود التي تؤطر عملية التواصل"[vii].

إن الوصايا في تلفظاتها تفعيل الخطاب وتقريره في المتلقي، من جهة استمالته تارة، أو إقناعه تارة أخرى، إضافة إلى مقصدية المتكلم في الأخذ بتوجيهاته ووصاياه وخلاصة تجربته الحياتية، فكان الشيخ عبد السلام الأسمر غالبا ما يحرص على عرض وصاياه بما يضمن لها قدرا من القبول والتفاعل مع المخاطب، مع ما تحمله من أفعال كلامية أسهمت في تشكل الوصايا الأسمرية وتمظهرها بمظهر موسوم يتجلى في مطلق الاتباع والتأسي، " باعتبار أن الطريق الصوفي الإلهي ومقاماته قابلة للاكتساب"[viii].

المبحث الأول: النسق البنائي للوصية

1. اعتماد الخطاب صيغة الجمع.

في سياق البحث التداولي على الباحث أن يحيط بكل ماله علاقة وصلة وتأثير على المتكلم، حتى يصل إلى كنه الخطاب والدافع من وراء هذا الاستعمال اللغوي دون سواه، فالشيخ الأسمر كثيرا جدا ما يعتمد في مفتتح وصاياه وفي أثنائها على صيغة الجمع كقوله: " إخواني إخواني إخواني: إياكم وأكل أموال الناس بغير طيب نفس..."[ix] وقوله أيضا" إلى الإخوان الداخلين في طريقتنا العروسية الشاذلية، منهم..." [x] هذه الظاهرة التي غدت نسقا تداوليا تم تأويلها في الشعر الجاهلي من خلال البحث عن الغاية الكامنة وراء هذا الاختيار البنائي والوصول إلى أجوبة تكشف عن تحولات صيغ بنائية إلى نسق للخطاب التداولي عامة ومنه الخطاب الصوفي، فذهب كثير من الدارسين إلى أن قول الشاعر الجاهلي ومن حاكاه من نحو: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ..، القائم على ملازمة الخطاب الثنائي والجمعي تابع لعلاقة الخطاب بالبيئة الصحراوية التي تكتنف حياة الشاعر والمؤسسة على الحيطة والحذر والمشحونة بقصدية المتكلم، فالصحراء شارحة لظروف معاشهم اليومي، فكان الرجل إذا هم بالسفر يصطحب معه اثنين أو أكثر؛ لأن الاكتفاء برفيق واحد قد يؤدي إلى غدر أحدهما بالآخر ولا شاهد عليه [xi] ، ومما يعزز تحول البنية الثنائية أو الجمعية إلى نسق تداولي حضورها في زمن متأخر لدى شاعر أدمن الصحراء ولازمها، وهو مالك بن الريب حين يقول: خذاني فجراني ... وهو خطاب للمثنى يدلل به على براءة رفيقيه ، ووفق هذا الاقتضاء الذي غدا مهيمنا ونسقا على الخطاب التداولي نجد وجوب اللجوء إلى مستلزم هذا الاقتضاء، ومجاراة هذا النسق؛ لما يوفره من مكنات تعين على تحديد مقصدية المتكلم، تبعا للعلاقة القائمة بين الكلمة والغرض الذي تمثله أو المعبر عنه، فإذا كانت العلاقة افتراضية قائمة على العرف والعادة كما يقول دي سوسير، فإن بيئة صنع من أسسها ومبادئها الشيخ الأسمر لغته تعد لغة متحسسة ومدركة لأحوال الاستعمال اللغوي في أظهر معانيه، وليس في مقام الصوفية ما هو سابق ومتقدم على مبدأ تأكيد الأخوة بين المريدين والسالكين، والحال ذاته في المجتمع الجاهلي وساكنو الصحراء عموما من تفعيل لغتهم من أقرب الأشياء التي تحيط بهم، متحسسين لكل ما يعيشونه ويعيشون به.

فالتداول يشكل نسقا في الاستعمال اللغوي للخطاب، والنسق يكون ظاهرا، ويأخذ طابع السلوك الاجتماعي، أما النسق المضمر فيستدل عليه التداوليون بالتأويل التداولي والاقتضاء، فظاهرة أن العرب يحتاجون لشاهد ثالث صار نسقا ثقافيا شائعا في خطابهم فمن الحكم والوصايا العربية: إياك ان تنسى ثلاثة أنواع من الناس: من ساعدك في الأوقات الصعبة ، ومن تركك في الأوقات الصعبة ، ومن سبب لك الأوقات الصعبة، زد على ذلك من الحديث انبوي المنبه على أنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، وذلك إمعان في نسق الخوف من النسق الثنائي حالة حدوث مكروه ليس من شاهد على ما حدث، وقوله تعالى: إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون)...، ولقد جاء الخطاب القرآني موافقا للنسق السائد عند العرب ، لإزالة الخوف بالتعزيز بثالث والمتلقي هو فاعل مؤثر في المعنى التداولي، بل هو شريك في الانتاج ، فالقول للمتكلم لكن التأويل مهمة المتلقي، والخطاب القرآني قال الاثنان إننا مرسلان وحصل مقتضى الخطاب بالإقناع لما احتاج إلى التعزيز بثالث ، فهو حاجة ماسة اقتضتها طبيعة المخاطبين وأحوالهم تعزيزا لثقة والاطمئنان؛ لذلك كانت التداولية مهمة في منهجية التأويل النسقي، الذي يعني "متابعة حركة المعنى نحو المرجع ، بمعنى نحو العالم، والتأويل هو إظهار التوسطات الجديدة التي أقامها الخطاب بين الإنسان والعالم"[xii]، فالتداولية علم معني بدراسة التواصل اللغوي لكونه أهم الاحتياجات الإنسانية، والخطاب اللغوي يمس البحث التداولي من حيث اشتراك المتلقي والمعنى يخضعان لمكون معرفي واحد ، مما يعني أننا أمام حال من حالات تغير المعجم اللغوي وهيمنة بعض المفاهيم الفكرية خاصة بانتزاع الألفاظ من معناها إلى المعنى الفكري أو الأيديولوجي، مما يمثل ظاهرة فكرية أو عقدية كما هو الحال في التفكير الصوفي بهيمنة معجمه على الخطاب المجتمعي، فاللغة ما أن ينطق بها حتى تتحول إلى واسطة بعينها ، فلا بد من أن ترتسم فيها خانتان : نفوذ القول الجازم ، وتبعية التكرار والاجترار، وهذان العنصران اللذان يتفاعلان في تشكل النسق لأي خطاب.[xiii]

2. اعتماد الخطاب صيغة الشرط

وهنا يتبنى الشيخ الأسمر في كثير من وصاياه في مسالك الوصول، صيغة الشرط اللغوي في معالجة ما من شأنه أن يحجب المريد عن التجلي الإلهي،" وعليكم بالإحسان إلى جيرانكم ومماليككم وأصحابكم، فمن لم يتأدب مع سائر الخلق لا ينتفع من انتسابه بشيء... فمن جهل المريد أن يسيء الأدب فتؤخر العقوبة عنه، فيقول من جهله وانطماس بصيرته: لو كان هذا سوء أدب لقُطع الإمداد وأوجب البعاد ... هذا نوع من الاستدراج وسوء أدب المريد موجب لعقوبته... ووقوع الحجاب على قلبه، وتبدل الأنس بالوحشة، وانتساخ الضياء بالظلمة".[xiv]

هذا النسق اللغوي الذي يتماهى مع المقصد الدلالي لمجموع الوصايا الأسمرية التي وإن تباعدت وتشعبت موضوعاتها مقصدا أحاديا، وهو ما نجده لدى منظري الدرس اللساني التداولي بمصطلح: الفعل الكلامي الأكبر، الذي تنتجه سلسلة من أفعال الكلام المختلفة، حينما تشير إلى مقصد إجمالي واحد، وقد يكون الفعل الكلامي الأكبر نفسه شرطا أو نتيجة لأفعال كلامية أخرى[xv].

وهذا ما تتغياه وصايا الشيخ الأسمر حين يكون المقصد من الوصول وبلوغ الحضرة الإلهية غاية أحادية، إذ حال الظفر بها تتحول المحسوسات ومجريات الأحوال ومسالك الصروف إلى أحوال وهيآت واضعة الرؤى، معلومة المقاصد،"

فإذا رددت إلى عالم الحس علمت من أين نطقت الرسل، ونزلت الكتب والصحف، وعلمت ما بقي من الأبواب مفتوحا، وما سُد منها، ولماذا سُد؟ وعلمت ما تقول وما يقال لك، ورزقت الفهم عن كل شيء".[xvi]

هذه التزكية النفسية غايتها التلقي بالمكاشفة، وبلوغ هذه الغاية هو تقديمها في قولبة الشرط والجزاء توظيفا للمنطقية الناتجة عن إحكام توقف الجزاء على الفعل الشرط، وأيضا الاستلزام المنطقي المؤكد لحتمية وقوع الجواب عند حتمية وقوع الشرط، كل ذلك في تحقيق المجاهدة والإقبال على الله تعالى، وتفريغ القلب من شواغل الدنيا[xvii].

المبحث الثاني: النسق البنائي المضمر

1. تداولية الفعل سقط:

وتجنح اللسانيات التداولية إلى تحليل مقامات الخطاب، والمنطوقات في علاقتها بالمتكلم والمتلقي؛ ليكون الاتصال شيئا أوسع من مجرد القول، ودراسة الاشتراطات التي تجعل من الاتصال ناجحا، ودراسة ما من شأنها أن يسهم في رسم خارطة التواصل المعرفي من خلال ما يتخلل الألفاظ من علاقات تزيحها عن حضورها المعجمي؛ لتربطها بالسياقات غير اللغوية، ومما يعد مثالا للنسق التداولي المضمر في وصايا الشيخ الأسمر كلمة - سقط- وما آلت إليه من دلالات صوفية تؤكد معنى البعد والانفصال عن الذات الإلهية، فالسقوط في المعجم الحركة من الأعلى إلى الأسفل.

ومه قوله تعالى: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جني، وقوله تعالى: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، إذ تخلو من دلالة السلب والإقلال القيمي، والوصية الصوفية لدى الشيخ الأسمر استثمرت الحركة المجتمعية لفظة التي دارت في فلكها، فلم تكتف بأن تحولت من التحول المكاني إلى تحول مكانة ورتبة، ومن علو مكان إلى علو مكانة، بل تعدت إلى تجسيد سلب المنفعة وانعدام المرتجى بعد تأميل، والسِقط هو نزول الوليد قبل أوانه وهو مستبين الخلق، ومنه سقط المتاع وهو رديئه وسيئه، فكان من جانب سلوك التصوف أو امتهن من تبناه وناكفه مآله السقوط والتردي المطلق، في قوله: فإذا ابتلي به المريد ولم تتداركه رحمة من الله تعالى في الحال العتيد كان ذلك موجبا لسقوطه من عين الله تعالى.[xviii]

2. **تداولية الفعل أوصى:**

ومثله النسق المضمر في تداولية قول نصح، في قوله في مفتتح وصاياه، فبعد حمده تعالى والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم يذكر لفظ الوصية وما اشتق منها، ففي وصيته لأحد مريديه يقول" وخير الوصايا وأنفعها وصايا الله... ثم إن نصيحتي لك أن تكون..."

حيث سيطرت الأفعال التوجيهية في تشكلها النسقي التداولي على فقرات واسعة من الوصايا، هذا النسق توزعت خارطته بين محاور متعددة، فهناك من القضايا الموصَى بها ومن المحتمل ألا يكون لها حضور لدى المتلقي كقيام الليل، بخلاف سواها التي يجزم الشيخ بحضورها لدى الموصَى كالصلوات الخمس، واستشعار البدن وقوفه بين يدي الله تعالى، وهناك من القضايا ما قد يستبعد الشيخ وجودها وحضورها لدى الموصَى كالكينونة مع الإقبال الإلهي على العبد، فالفعل الكلامي في الوصية تعرّض من قبل الشيخ الأسمر إلى ممارسة انتقائية عالية الدقة والعناية، إذ خلت- الأفعال الكلامية– من الحشو والتكرار غير الممنهج، فجاء النسق المضمر مشتملا على ما كان مظنة الغياب عن الموصى من الرغائب والفضائل؛ لكثرة الغفلة، وما كان مجزوما بحضوره ويرغب الشيخ تنميته وسموه، وما كان مظنة الغياب التام لحاجته للمجاهدة القصوى، فقد يحصل الشعور الكلي زمن تأدية الفريضة، والموجه إليه هو استشعار خاص، استشعار قلبي، وما كان مظنة عدم الحضور والغياب؛ لتعدد أطرافه، باستلزامه استحضارا لإقبال الله تعالى على العبد أولا، ثم طلب الإقبال على الله تعالى.

هذه المحاور المتقدمة في الوصية ذات ملمح تعبدي صرف؛ لكونها ممارسة بين العبد وربه، تم تحول لفظ النصح من دلالات معجمية تتحرك بين الشيء الخالص، غير المغشوش بسواه، وبين ذي الخياطة المتقنة، فكان النصح الوارد في الوصايا الأسمرية معتمدا على المضمر من دلالة اللفظة الجامعة بين الصفاء والنقاء من جهة وبين دقة الصنعة وإتقانها من جهة أخرى، فهي وصايا خلصت مما قد يشوبها في كينونتها، وتم تقديمها لمريد بنحو من الإحكام والتدقيق، فالدلالتان المبطنتان في الفظ نصح كانتا نسقا تداوليا في المقاربة الصوفية لدى الشيخ الأسمر.

إضافة إلى توزيع النسق في نص الوصية، فبدا النصح المذكور في مفتتح الوصية متخذا أنماطا بنائية متعددة تبعا لمضمون الوصية، مما يعد نسقا يمكن تسميته بالنسق الأدائي للوصية الصوفية، فالأفعال التوجيهية التي قاربها الشيخ الأسمر ذات بعد إنمائي وترقي ذاتي، بها تسمو الذات الإنسانية إلى الاقتراب من البلوغ والوصول بالمعنى الصوفي، ولحلول هذه الذات في مكون بدني حسي له أحواله الحياتية والمعيشية، وله منازعاته الغريزية والشهوانية اتخذت أنساقا أدائية لها تعلق بالفكرة والموضوع.

3. تداولية الكيفية الأدائية:

ومع أنه مما لا شك فيه أن الوظيفة الإجمالية للوصية هي التوجيه والتمسك بها، فإننا نلحظ نسقا أدائيا مخصوصا للشيخ الأسمر في عرضه لوصاياه التي تلتقي عند عنصر التوجيه والنصح، لكنها تنبني بتوزيع خاص لأفعال الكلام، فكأن للشيخ الأسمر قولا يتلفظ به، ومنطوقات يطلقها، وهناك بجانبها أداء لغوي، تتحول معه اللغة من مجرد أقوال إلى أفعال وأحداث، انطلاقا من أن للغة جانبا قوليا ولها أيضا جانب فعلي، وعلى المتلقي – وفق المقاربة التداولية- أن يهتم بما تفعله اللغة اهتمامه بما تقوله، فالأدائية تعد تطبيقا للغة الأدبية، ووجها من وجوهها، إذ أن " الأدب بوصفه

منطوقا أدائيا يؤدي إلى دفاع عن الأدب، فالأدب ليس مقولات زائفة وتافهة، لكنه يأخذ موقعه من أفعال اللغة التي تحول العالم خالقة الأشياء التي نسميها"[xix].

المبحث الثالث: نسق لازم الفعل الكلامي

1. الفعل التعبيري الوجداني

في الفعل الكلامي الإخباري يسيطر نسق خطابي مؤسس على تلفظات التلطف والتحنن، وما يشعر بالقرب ويفضي إلى القبول والاستحسان، ومن ثم للاتباع والالتزام، من نحو – إخواني عليكم بـ ...، فالفعل الإخباري اعتمد الصورة الإقناعية؛ لما تفضي إليه من قبول ومتابعة، بعيدا عن الصورة الخيالية المثقلة بالتأويل والخاضعة لأحوال التلقي ومدى استعداداته الفكرية والذهنية، فكانت الأفعال الإخبارية في وصايا الشيخ كالتالي:

قال الشيخ في وصاياه:" ...وقد طلبت مني- **أكرمك الله بتوفيقه**- ...وقد أجبتك لذلك راغبا في انتفاعك ودعائك... اعلم – **يرحمك الله** "[xx]

فالشيخ الأسمر بصفته المرسل لهذه الأفعال التعبيرية التي تعتمد في تنفيذ العملية الاتصالية على توظيف النسق التداولي للفعل الكلامي قد حقق الهدف التعبيري منها، وما تعلق بالوجهة التعبيرية الخارجية، ومحورها المخاطب أو المتلقي، نحو: . أكرمك الله بتوفيقه، أو ما تعلق بالتعبير عن الأنا، وهو الأظهر في إبانة مشاعر المتكلم، من حيث انفراده بهذا المقصد دون مشاركة غيره له، كمقصد الدعاء أو الترحم...، الذي يتراآى في الأفعال ذات الوجهة الخارجية.

فالفعل الكلامي التعبيري من الأفعال التأثيرية، التي" هدفها التعبير عن حالة نفسية محددة بشرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب، عن تلك الأمور المحددة"[xxi] يتوخى المرسل منه حدوث الأثر في مشاعر المخاطب، وهو ما ترتب عن فعل الكلام التعبيري، وعرف في الفكر التداولي بلازم فعل الكلام،" فأن تقول شيئا قد يترتب عليه أحيانا أو في العادة حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب وأفكاره أو تصرفاته، كما يستلزم ذلك لوازم ونتائج قريبة تؤثر على المتكلم وغيره من الأشخاص الآخرين، وقد يقع أن نتعمد إحداث هذه الآثار، والنتائج واللوازم عن قصد ونية، ومن ثم يجوز أن نتحدث ونحن نأخذ في اعتبارنا اجتماع كل تلك الأمور أن المتكلم قد أنجز شيئا ما أو فعلا ما ...، وإنجاز فعل من هذا النوع يمكن أن نسميه إنجاز ما ترتب عن فعل الكلام"[xxii].

فما جاء في الوصية كشف عن لون جياش من العاطفة الرقيقة: فما كان جواب إلا أن بكيت، وعن بالغ العناية والاهتمام: فعدلت إليه وجلست عنده، وعن جانب من مكنونات الذات وميولاتها: وقد أجبتك راغبا.

هذه الآثار النفسية التي تعلقت بالمرسل أبْينت جوانب من خلجات ذاته النقية نحو المخاطب، وليس هذا فحسب، بل تعدت الآثار المتكلم، وفي مقدمة أولئك الموصَى إليه، الذي لا ريب أن كان لهذا الفعل الكلامي التأثيري الأثر المحمود في الالتزام الأكمل والاتباع الأمثل. فتحقق للنص إنجاز ناجح للعملية الاتصالية.

1. نسقية الزهد في الأطعمة والأشربة

ومن الممكن عرض هذا النسق ضمن آلية الافتراض المسبق من عناصر الفعل الكلامي، فالافتراض المسبق معني بمشتملات العلاقات الاجتماعية بين أفراد الخطاب، وتتحدد هذه العلاقات بأسبقيتها للعملية الاتصالية وعملية إنتاج الخطاب، ودورها ينعكس على اختيار الاستراتيجية الملائمة لقصد المتكلم، ومدى اعتباره لهذا العنصر الاجتماعي المعين.

الأمر الذي يمكّنها به من الاضطلاع بدور مهم في افتراضات المرسل المسبقة والعناصر التي تسهم في اختيار استراتيجيات الخطاب.[xxiii]

إن اعتماد نسق الزهد في المطعم والمشرب مثل نسقا في تحصيل التربية وتزكية النفس، فما العلاقة القائمة بين المحتوى القضوي للوصية وبين آلية الزهد في المأكل والمشرب؟ حين نراه يسرد القصص امؤسسة على هذا الزهد في معالجة النفس وتهذيبها، " وحكي عن إبراهيم بن شيبان – رضي الله عنه- أنه قال: كنت بحلب، واشتهيت شبعة من الخبز والعدس، فاتفق ذلك..."[xxiv]

ومثله أيضا:

وقال السريّ- رضي الله عنه- إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس فما طعمتها..."[xxv]

فالشيخ الأسمر راعى في اختياره لقصص وصاياه ما اشتملت من جوانب التأدب واللياقة وعدم التصريح والمباشرة؛ لكونه رجح دورها في إنجاز ما تقتضيه الوصية، فكان اختيار نسق الزهد في المطعم والمشرب مجديا – بما يكتنفه من دوال سردية وقصصية من شأنها تأكيد التحول من سابق الدلالة المباشرة في ترك الطعام والشراب زهدا في ملذات الدنيا إلى مكون تداولي أوسع يعتمد الاعتناد عليه في بناء الوصية وتصديرها للمتلقي.

نتائج البحث

بعد هذا العرض المتواضع للنسق التداولي في وصايا الشيخ الأسمر أسجل عددا من النقاط التي تجلت للباحث، باعتبارها محاور مثلت أنساقا تداولية كان لها إسهامها في بناء الوصية الصوفية، أبرزها ما يلي:

- اعتمدت الوصية في بنائها لدى الشيخ الأسمر على أنساق لغوية ظاهرة ومضمرة لها حراكها التاريخي في المعجم والدلالة.
- إن الوصايا في تلفظاتها غايتها الإبلاغية تفعيل الدور الخطابي وتقريره في المتلقي، من جهة استمالته تارة، أو إقناعه تارة أخرى، واختيار النسق التداولي للفظة نمط من الغاية الإبلاغية التي تنشدها مقصدية المتكلم في نيل الحظوة والشرف، من خلال الأخذ بتوجيهاته ووصاياه التي تمثل خلاصة تجربته الصوفية.
- الأفعال التوجيهية في الوصايا كانت موزعة بحمولتها النسقية تبعا لطبيعة الأفكار والموضوعات التي تتغياها الوصية.
- لم يقتصر توظيف الشيخ الأسمر على الفعل الكلامي التعبيري بل تعداه إى ما يعرف بلازم الفعل الكلامي.
- إن تفعيل الشيخ الأسمر لآلية الافتراض المسبق التداولي كانت في الإطار السردي القصصي، لتجمع الأنساق المعتمدة عنصر السرد القصصي في تحولاتها التداولية.

هوامش البحث

[1] هايدغر. مارتن. أصل العمل الفني، ترجمة د. ابو العينين دودو. منشورات الجمل، ألمانيا، ط1. ص2003. ص 23.

[ii] . ابن عربي. محي الدين. الفتوحات المكية. 1. 97.

[iii] . عصفور. جابر. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي. 51.
[iv] . ينظر: ابن منظور. جمال الدين. لسان العرب. مادة: وصى.
[v] . الشيباني. علي. صحيفة الوطن العمانية. العدد:8113. 2005.
[vi] . صحراوي. مسعود. التداولية عند العلماء العرب. دار الطليعة. بيروت. ط1. 2005. 26.
[vii] . الشهري. عبد الهادي. استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيرت. ط1. 2004. 39.
[viii] . سعاد. الحكيم. ابن عربي مولد لغة جديدة. 48.
[ix] . المصدر نفسه. 13.
[x] . بن رابعة. مصطفى. رسائل الأسمر إلى مريديه.320
[xi] . بهارات. كاظم. . الحجاج. دار المكتبة الأهلية. ج2. 2016. ص 41.
[xii] . بغورة. الزواوي. العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة ــمجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد: 3 ، المجلد 35 ، مارس 2007 م : 121
[xiii] . ينظر: بارت. رولان. درس السيميولوجيا ، ، تر: عبد السالم بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط3/ .1993. ص 176.
[xiv] بن رابعة. مصطفى. رسائل الأسمر إلى مريديه. دار المدار الإسلامي. بيروت. ط1. 2003. 291.
[xv] . ينظر: دايك. فان. النص والسياق. استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي. ترجمة: عبد القادر قنيني. أفريقيا الشرق. المغرب. لبنان.2000. 255.
[xvi] ابن عربي. محي الدين. كتاب الوصايا. 506.
[xvii] . بلخير. عمر. تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظريات التداولية. منشورات الاختلاف. ط1. 2003. 68.
[xviii] . بن رابعة. مصطفى. رسائل الأسمر إلى مريديه. دار المدار الإسلامي. بيروت. ط1. 2003. 291.
[xix] . كولر. جوناثان. مدخل إلى النظرية الأدبية. ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام. المشروع القومي للترجمة. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. 2003. 135.
[xx] . بن رابعة. مصطفى. رسائل الأسمر إلى مريديه. 231.
[xxi] . الشهري. عبد الهادي. استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية. 158.
[xxii] . المصدر نفسه.157.
[xxiii] . ينظر: الشهري. عبد الهادي. استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية. 88.
[xxiv] . بن رابعة. مصطفى. رسائل الأسمر إلى مريديه. 300.
[xxv] . المصدر نفسه. 311.